الفصل الثالث

الأرض

١- الأرض.

٢- الله والأرض.

٣- لله ملك الأرض وميراثها.

٤- اتساع الأرض.

٥- خلافة الإنسان فى الأرض.

٦- الاستقرار فى الأرض.

٧- الأرض الخضراء.

٨- إصلاح الأرض.

٩- فساد فى الأرض.

١- الأرض

للألفاظ أيضا فقه الأولويات. ومازالت الألفاظ المستعملة فى خطابنا الدينى يغلب عليها الألفاظ التقليدية الموروثة التى لا صلة لها بالواقع المعاش ولا ظروف العصر. تعتمد فى معظمها على النقل دون العقل، من عالم الغيب وليست من عالم الشهادة، موضوع للتصديق الإيمانى دون برهان عقلى ومن ثم هى أقرب إلى الظن منها إلى اليقين طبقا للأشاعرة لأنها تعتمد على النقل وحده دون العقل.

ومنها ألفاظ المعاد، ما يحدث بعد الموت ابتداء من عذاب القبر ونعيمه وكل أهوال القيامة ومناظر الحشر من صراط وميزان وشفاعة وحوض وأوصاف الجنة والنار. وكلها من الخبر وليست من المعاينة. أوّلُها المعتزلة والفلاسفة. الحياة بعد الموت هى الرغبة فى الخلود، والميزان هو العدل والاستحقاق، والجنة والنار هما الرضا عن النفس أو تأنيب الضمير، النعيم المعنوى والعذاب المعنوى.

وقد تأتى الألفاظ من العقائد الأشعرية مثل الإيمان والكفر، والكبائر والصغائر. وقد تأتى من الفقه مثل الحلال والحرام والأمر والنهى. وقد تأتى من التصوف مثل الصبر والتوكل والخوف والخشية والرضا والتسليم والفناء والمحو والفقد. ولا نستعمل ألفاظا نحن فى أمس الحاجة إليها تجذب الشباب نحو العلمانية والغرب مثل الحرية والديموقراطية والتعددية والرأى الرأى الآخر. وتمتلئ القنوات الفضائية والإذاعات وصفحات الفكر الدينى بهذه الألفاظ التقليدية حتى أصبح الدين عالما مغلقا منفصلا عن الحياة، له رجاله، بضاعة رائجة فى وقت

يتمسك الناس فيه بالموروث كطوق نجاه من أزمة العصر واضطراباته. وتمتلئ البرامج الدينية بهذه الألفاظ مثل "نور على نور". وإن تغير بعضها مثل "العلم والإيمان"، "الشريعة والحياة" فإنها تدور أيضا حول المفاهيم التقليدية واستعمال الجديد لتأصيل القديم. ويصل الأمر إلى كتب التربية الدينية فى المدارس فى دروس هامشية ليس بها نجاح ورسوب، ولا تضاف إلى المجموع، يفصل فيها بين المواطنين طبقا لدياناتهم، الإسلام للمسلمين، والنصرانية للنصارى. فتكرس القسمة الطائفية فى التربية والتعليم. وبمجرد ما يعى الطالب، مبكرا فى الثانوية أو متأخرا فى الجامعة يترك الدين الذى لم يشده إلى الأيديولوجيات العلمانية للتحديث، ليبرالية واشتراكية وماركسية وقومية ليشبع بها فكره السياسى ويساعده على ممارسة مواطنته والتزامه الاجتماعى. وقد يهاجر إلى الخارج بحثا عن الرزق والحلول الشخصية للمشاكل العامة. وقد ينضم إلى الحركات السرية التى تعده بكل شىء فى المستقبل كرد فعل على لا شىء فى الحاضر. وقد يظل حائرا بين هذا وذاك، يندب حظه، وينعى نفسه وينتظر الفرج فلا يأتى فيموت.

وفى نفس الوقت نحن أمام عدو يتحدث عن "أرض إسرائيل" ويقصد بها فلسطين. ويدعو يهود العالم إلى الهجرة إليها والاستيطان فيها، من "الدياسبورا" إلى "العاليا"، من "الشتات" إلى "العودة". وقد بدأت حركة الاستيطان منذ أوائل القرن التاسع عشر بعد عدة محاولات من المفكرين اليهود مثل مارتين بوبر بتغيير القيم اليهودية الموروثة من قراءة التوراة كأعظم فعل فاضل وأول أمر إلهى إلى الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فى الأرض، والتحول من بدو إلى مزارعين، ومن رُحّل إلى مستوطنين، فزرعوا الأرض، وبحثوا عن مصادر للحياة، وبنوا المستوطنات، المزارع الجماعية، الموشاف. وكلما زادت الهجرة تم طرد الفلسطينيين وإحلال المهاجرين اليهود محلهم. ومازال التوسع كل يوم قائما. فالأرض هى الأرض المقدسة. وعدهم

الله بها فى العهد القديم، عهد نوح الذى جدده إبراهيم والذى قننه موسى. فاليهودى لا يستطيع أن يعيش إلا فى هذه الأرض، أرض الميعاد، وإلا فى هذه المدينة، القدس، المدينة المقدسة. ولا يستطيع أن يعبد الله إلا فى هذا المعبد، هيكل سليمان الذى لابد من إعادة بنائه حتى تصح العقائد اليهودية، ويستطيع اليهود ممارسة شعائرهم. وإذا مات اليهودى خارج الأرض المقدسة فإنه يدفن حيث مات ويضع تحت رأسه كيسا فيه حفنة من تراب فلسطين وكأنه دفن هناك. وغزت إسرائيل كل الجامعات الغربية، الأوروبية والأمريكية، وكل أقسام الدين وتاريخ الدين والفلسفة فيها بموضوع "الله والشعب والأرض" كفرع من "اللاهوت الجديد". فلا يمكن تصور الله بدون الشعب المختار ولا يمكن تصور الشعب المختار دون أرض المعاد، أرض الآباء والأجداد. فالشعب والأرض جزء من الألوهية. أما نحن المسلمين فالأرض ليست جزءا من العقيدة، الله لا زمان له ولا مكان. ولم يختر شعبا بعينه **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**، **﴿وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾**، **﴿إن الله غنى عن العالمين﴾**. الله منزه، قائم بذاته، قديم باق وواحد. لا الأرض ولا الشعب ولا المدينة ولا المعبد من صفاته أو أوصافه أو أسمائه أو أفعاله. فلسطين والقدس والمعبد بالنسبة لليهود جزء من العقيدة اليهودية فى حين أنها ليست جزءا من العقيدة الإسلامية. هى وقف إسلامى أى جزء من الفقه والشريعة. والفقه متغير، أحكام بشرية تتغير بتغير العصور. وقد تغير العصر وعانى اليهود من المحرقة فى ألمانيا ومن كافة صنوف الاضطهاد والتطهير العرقى فى روسيا وأوروبا الشرقية بل والغرب بعد حادثة داريفوس ونشأة اللاسامية. وقد آن الأوان لإعطاء أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض.

أمام هذا الوضع ماذا يفعل المفكر العربى؟ فالمعركة بيننا وبين الكيان الإسرائيلى ليست فقط بالسلاح، مرة لك ومرة عليك، وليست فقط بالانتفاضة

سلمية أو مسلحة، وهو تكليف ما لا يطاق. وليست فقط بالموقف العربى الموحد وراء فلسطين وهو صعب المنال. وليست فقط بالتعاطف الدولى الذى لا يتعدى الأقوال إلى الأفعال. وليست مؤجلة إلى أجيال قادمة قادرة على النصر وتحرير فلسطين والأقصى، فالأجيال الحالية تريد الهجرة خارج الأوطان كما يحدث الآن فى العراق من تفريغه من شعبه كما حدث فى فلسطين فى ١٩٤٨، نكبة ثانية بعد النكبة الأولى.

معركة المفكر العربى هى إعادة بناء الموروث القديم، وتحويل الأرض من ثقافة شعبية إلى ثقافة سياسية. صحيح، هناك يوم الأرض، وفرقة الأرض، وفيلم الأرض، وأغانى الأرض، وشعر الأرض. "آه، يا جرحى المكابر. أنا لست مسافر، ووطنى ليس حقيبة. إننى العاشق والأرض حبيبة". لا يكفى أن يقبل الأسير الفلسطينى العائد إلى فلسطين تقبيل الأرض بل أن تتحول الأرض إلى جزء من عقيدة الأمة.

لقد ظل الصليبيون قرنين ونصف فى أوطاننا. وإسرائيل مزروعة فى الأرض منذ ستة عقود. وقد بدأ صلاح الدين فى معركة القدس بالقضاء على الصوفية أنصار التوكل والصبر والرضا والخوف والخشية والمحبة، والقضاء على المهدية التى تريد الخلاص فى المستقبل. إعداد الأمة بالثقافة السياسية جزء من الإعداد للمعركة، ليس عن طريق حماسيات إدارات التوجيه المعنوى بل بإعادة تأسيس العقيدة على الأرض. فالأرض جزء من الألوهية **﴿إله السماوات والأرض﴾، ﴿رب السماوات والأرض﴾، ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾.**

على هذا النحو يستطيع المفكر العربى أن يساهم فى صمود سوريا وحزب الله وإيران، ليس فقط بالجهاد المسلح المتهم بالعنف والإرهاب، بل عن طريق إعادة

بناء الموروث القديم، وجعل الأرض محور العقيدة وبؤرة الثقافة السياسية، والدخول فى حوار الأديان، وحوار الحضارات، وحوار الثقافات، والأرض فى الأذهان والشعب فى القلوب.

٢- الله والأرض

ذكرت الأرض فى القرآن عدة مرات (٤٦١ مرة). فهى أحد الموضوعات الرئيسية فيه وليست موضوعا هامشيا. وذكرت معرّفة بالألف واللام فى معظم الحالات أى أنها ليست ملكا لأحد أو تُنسب لقوم، ومعرّفة بضمير الملكية (خمس مرات) ضمير المتكلم الجمع "أرضنا" (ثلاث مرات)، وضمير المتكلم المفرد "أرضى" (مرة واحدة)، وضمير الغائب الجمع "أرضهم (مرة واحدة). فالأرض لنا، نحن المسلمين، ولى، الفلسطينى القابع فيها منذ آلاف السنين، ولهم، المطرودون الغائبون عنها تحت اسم اللاجئين. وذكر لفظ "الأرض" مجرورا بالإضافة (٣٣١ مرة) أكثر منه منصوبا أى مفعولا به (٨٦ مرة) أى أنها مجال الفعل، والأقل هو الفاعل (٣٤ مرة)، فالأرض لا تفعل بنفسها بل تتلقى فعل الأفراد والجماعات عليها.

وقد ذكرت هذه الآيات المئات فى ستة مجموعات: خلق السماوات والأرض ونهايتهما، ملك السماوات والأرض وميراثهما، اتساع الأرض واستقبالها الفعل الإنسانى، تسخير الأرض للإنسان، إعمار الأرض والاستقرار والسكن فيها، إحياء الأرض بما فيها من نبات وحيوان.

فى القرآن الكريم الله إله السماوات والأرض فى عديد من الآيات مثل **﴿إله السماوات والأرض﴾**، **﴿رب السماوات والأرض﴾**، **﴿هو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾**. فمن استولى على الأرض فقد استولى على السماء أيضا لأنهما قرينان. ومن استولى على الأرض فقد استولى على نصف الألوهية لأن الألوهية فى السماء

والأرض. السماوات والأرض كيان واحد قبل أن ينفصلا ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما**﴾. لذلك تحدث الصوفية عن الرتق والفتق الروحيين، فى الضم والجمع والتوحيد.

والأرض والسماوات مخلوقتان ﴿**وهو الذى خلق السماوات والأرض**﴾. مفطورتان أمام العين، مبسوطتان. وقد خلقت فى ستة أيام دلالة على التدرج فى الفعل، وإيحاء بأهمية المراحل دون القفز فوقها. فكل شىء يحتاج إلى زمان لأن الخلق فى الزمان.

والسماء والأرض قائمتان ولا يزولان إلا بأمره ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾. لا يستطيع أحد تدميرهما حتى ولو امتلك قوى القنابل الذرية وأشدها فتكا ﴿**إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا**﴾. والله يمسكهما معا ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾.

وقد تم هذا الخلق بالحق. لذلك وحّد الصوفية بين الحق والخلق. ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾، فالأرض حق تخرج عن دائرة الباطل ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلا**﴾. السكن فيها بالحق وليس بالعدوان. فالحق لا يتعامل إلا مع الحق وليس مع الباطل. لذلك ينزل عليها الوحى، إحقاقا للخلق واعترافا به ﴿**تنزيلا ممن خلق الأرض**﴾. الوحى تكملة للخلق ﴿**قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض**﴾. الأرض مهبط الوحى وليس الزيف والبطلان والدعاوى الكاذبة والأساطير العنصرية العرقية بأحقية شعب معين بالسكن فيها والاستيطان عليها. لم تخلق الأرض عبثا ولعبا ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض بينهما لاعبين**﴾، بل لتحقيق هدف وغاية.

والله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ﴿**وما يخفى على الله من شىء**

فى الأرض ولا فى السماء﴾. ولا سر فى العلم ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض﴾. ومهما بلغ الإنسان من السرية فى قوله وفعله فإن الله مطلع عليه، وعالم بالأهداف غير المعلنة. الله يغمر الأرض والسماء بنوره ﴿الله نور السماوات والأرض﴾. وتعكس الأرض هذا النور بفعل الإنسان وتحقيق رسالة الله فى الأرض.

وقد خلقت السماوات والأرض للتفكر فيهما وللاتعاظ بهما. فهما من الآيات أى الدلائل والمؤشرات ﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا﴾. والاعتبار يحتاج إلى لب وفؤاد وبصر وبصيرة ﴿إن فى خلق السماوات والأرض... لآيات لأولى الألباب﴾. فإدراك الآيات فى الأرض مشروط بالوعى الذاتى ﴿وكأى من آية فى السماء يمرون عليها﴾. الأرض ليست فقط للاستيطان بل للتأمل والتفكر فى المصير. ومع أن موضوع الاستدلال بديهى ﴿أفى الله شك فاطر السماوات والأرض﴾ إلا أنه يحتاج إلى الاستدلال ليطمئن القلب ويهدأ الفؤاد. فالقلب يعقل ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾. يكفى السير فى الأرض ﴿قل سيروا فى الأرض فانظر كيف بدأ الخلق﴾. إنكار الحقائق البديهية مكابرة واستعلاء.

وفى مقابل ذلك تسبح الأرض والسماء بذكر الله. وبالتالى يستحيل أن تكون مسرحا للفساد، للقتل والذبح والتدمير للنسل والزرع، للأطفال والنساء وللشباب والشيوخ ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن﴾. وتسبيح الأرض بتعميرها واخضرارها ونمائها وليس بتدميرها وتجريفها.

والله وحده هو الجدير بالعبادة فى الأرض ﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض﴾، ﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض﴾. والعبادة تحتاج إلى الصبر والاصطبار ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما، فاعبده واصطبر لعبادته﴾. فهو الذى خلق الأرض لصالح الإنسان ليسكن

فيها ويعمرها، وليست لعبادة القوة والطاغوت والثروة والسلطة والعبادة المزيفة. فهناك فرق بين الزائل والدائم.

ومع ذلك، هذه الأرض ليست ثابتة بسبب فعل الإنسان الذى يظن أنه قائم فيها أبدا. فقد تُخسف الأرض بالمفاسد **﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾**. وقد تخسف بالماكرين والظالمين والعتاة والطغاة **﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض﴾**. فلا أمان للمعتدين من الله **﴿أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض﴾**. ومهما توسع الكيان الاستيطانى عرضا فإن الله قادر على أم ينقص الأرض من أطرافها **﴿أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها﴾**. وهو ما حدث للاستعمار الذى انتشر فوق أطراف الأرض ثم بدأت حركات التحرر الوطنى بتقليص أطرافه حتى ردته إلى حدوده الطبيعية فى الدول الأوروبية التى خرج منها. وهو ما يحدث للكيان الصهيونى الآن. مهما توسع فى الأطراف وزرع المستوطنات فى الضفة الغربية والجولان فإن المقاومة اللبنانية دحرته فى طرفه الشمالى، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ قلصته فى طرفه الجنوبى.

وكما خلق الله الأرض يرجعها إليه من جديد. وبعد أن يمتحن الإنسان عليها ويختبره فيها تظهر النتيجة فى النهاية بعد أن تنتهى حياة الإنسان على الأرض. وهو يوم لا يأتى إلا بغتة. علامته انتهاء الاختبار. حينئذ تبدل الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء. فالأرض جميعا فى قبضته يوم القيامة. وتشرق بنور ربها. ويسمى ذلك اليوم القيامة، الزلزلة **﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾**، الراجفة **﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾**، وعشرات من الأسماء الأخرى رصدها المتكلمون والصوفية. يخرج الناس من القبور، وتخرج الأرض أثقالها، وتنشق الأرض عن البشر سراعا. ترتج الأرض وتدك، وتسير الجبال. فالأرض ليست دائمة. والاستيلاء عليها مؤقت. فكما خلقها الله تعود إليه. وكما سكنها قوم ظلما وعدوانا فإنهم يخرجون منها.

٣ـ لله ملك الأرض وميراثها

ليس الله فقط ﴿إله السماوات والأرض﴾، ﴿رب السماوات والأرض﴾، ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾. لذلك لا يجوز لأحد، لفرد مثل فرعون أو لقوم مثل إسرائيل التأله فيها، ولكن الله أيضا مالك السماوات والأرض وله ميراث السماوات والأرض.

فالأرض لها صاحب ومالك ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾ لا يجوز لأحد غيره ادعاء ملكيتها. ﴿له ما فى السماوات والأرض﴾. والكل يعرف هذه الحقيقة. والسؤال عنها بديهى ﴿قل لمن له ما فى السماوات والأرض قل لله﴾. وهو اعتراف إنسانى بناء على تجربة إنسانية ﴿الذى له ملك السماوات والأرض، لا إله إلا هو﴾. الملكية الإنسانية للاستعمال وليس للاستيلاء. الإنسان وجود وليس ملكية كما يقول الفلاسفة المعاصرون. يأتى إلى العالم لا يملك شيئا، ويغادره لا يملك شيئا.

لله ملك الأرض ومن عليها. وله خزائنها ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾. ما فوق الأرض وما تحت الثرى، العمران والنفط، البنايات والهياكل على الأرض والمعادن الطبيعية تحتها. وهو ما سماه الفقهاء "الركاز". ولا أحد يملك ذرة فى السماء أو فى الأرض كما تدعى النظريات العنصرية والقومية العرقية، ﴿لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض﴾. بل إن بعض الدول أرادت امتلاك المحيطات والكواكب والنجوم والقمر وكل ما فى الفضاء. فالملكية على هذا النحو مظهر من مظاهر القوة والعدوان.

وتتضمن ملكية الله للسماوات والأرض ملكية مقاليد الأمور فيها، والسيطرة على قواها **﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾**. فهى ملكية عالمة وليست ملكية جاهلة تنتهى إلى التلوث والتصحر.

وطاعة الكون لله طواعية واختيارا أى اتفاقا مع طبيعتها وقوانينها **﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾**. هى ملكية طيعة حرة وليست قهرا أو نهبا أو تدميرا.

وبهذه الملكية للسماوات والأرض يتبارك الله ويتقدس اسمه **﴿وتبارك الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾**. فيتحقق السلام على الأرض. فالملكية البشرية أساس الشقاق والنزاع حول الأشياء. الإنسان مستخلف فيما بين يديه. له حق الانتفاع والتصرف والاستثمار، وليس له حق الإضرار بالغير أو الاحتكار أو الاستغلال.

والأرض لها وارث هو الله **﴿لله ميراث السماوات والأرض﴾**. لا يجوز لأحد سواه ادعاء وراثتها، أبا عن جد، وابنا عن أب، وحفيدا عن ابن. فالميراث نتيجة طبيعية للملكية، وليس إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق كما فعل وعد بلفور لتأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين.

والله يورّث الأرض لعباده الصالحين وليس للعصاة قتلة الأنبياء والشعوب **﴿وتلك الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾**. وهو مدون فى الزبور **﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾**. فالعهد القديم لا يعطى الأرض لشعب بلا شرط. مهما اعتدى وعصى وقتل الأبرياء. شرط الوراثة العمل الصالح الذى يفتح الأرض للجميع. تتوارثها الأجيال الصالحة جيلا وراء جيل **﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾**، وليس عرقا أو شعبا دون غيره. يرثها من لهم

الجنة ﴿**وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء**﴾. وليس الذين لعنهم الله فى الدنيا والآخرة. فإذا عصى شعب مثل بنى إسرائيل يرث الصالحون أرض العصاة ﴿**وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها**﴾. فلا يبقى على الأرض إلا الصالح وفى نهاية الدنيا يرث إله هو الوارث الأول والأخير ﴿**إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون**﴾. إليه يرجع الأمر كله.

والله وحده هو الذى يعلم غيب السماوات والأرض ﴿**إنى أعلم غيب السماوات والأرض**﴾. ولا يخفى على علمه شىء. لا يأتى العلم من تزوير التاريخ وتحريف الوثائق كما تفعل إسرائيل فى إثبات وجودها كأول شعب على أرض فلسطين، وإثبات إقامة المسجد الأقصى على أنقاض هيكل سليمان الذى يجب إعادة بنائه كما كان فوق أنقاض المسجد الأقصى. وهو الذى يعلم السر والعلن ﴿**يعلم سركم وجهركم**﴾. ولا يخفى التآمر والكذب من أى فرد أو شعب عليه. يعلم ما تحت الأرض وما فوقها ﴿**ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا يابس إلا فى كتاب مبين**﴾. وهو أعلم بالحفريات تحت المسجد الأقصى وليس مؤرخى الزيف والبهتان. لا يغيب عنه شىء ﴿**وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين**﴾. يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿**إن الله عالم غيب السماوات والأرض. إنه عليم بذات الصدور**﴾.

ولا يستطيع أحد أن يعجز الله فى الأرض. فالله قادر على إهلاك من يعتبرهم البشر آلهة ﴿**إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه فى الأرض**﴾. فكل إنسان على الأرض عبد لله ﴿**إن كل من فى السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا**﴾. ولا يستطيع شعب مهما أوتى من جبروت وأسلحة دمار أن يعجز الله ﴿**وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء**﴾. لا يستقوى أحد نفسه عليه ﴿**وما كان ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض**﴾. كل شىء من ظواهر الطبيعة مسيّرة بأمره

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا﴾. والله هو الذى يدبر الأمر فى السماوات والأرض وليس القوى الكبرى ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾. ومن يعصى الله لا يعجزه ﴿ومن لا يجيب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض﴾. والجنود لله فى السماوات والأرض ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾. وليس جيش الرب فى أوغندا أو جيش الدفاع الإسرائيلى فى فلسطين المحتلة.

ومادام الله هو مالك الأرض ووارثها فله على الناس حق الطاعة ﴿ولله يسجد من فى السماوات والأرض﴾. وليس العصيان، قتل الأنبياء، وتشريد الشعوب خارج أوطانها واحتلال أراضيهم. له على الناس حق الإسلام له ليتحرروا من عبودية الأسياد من البشر ﴿وله أسلم من فى السماوات ومن فى الأرض﴾. فالسجود علامة الطاعة ﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض﴾. وليس الاستكبار والعلو فى الأرض والتعالى على رؤوس العباد.

ومادام الله هو مالك الأرض من عليها وهو وارثها فإنه يملك الرزق للناس جميعا ليس عن طريق العدوان وشفط المياه من الآبار والاستيلاء على أشجار الزيتون، ومنع تصدير الموالح ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾، مهما بلغت المعونات الأجنبية والاستيلاء على الثروات الطبيعية للشعوب. ومادامت له مقاليد السماوات والأرض فإنه يبسط الرزق لمن يشاء ﴿له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء﴾ بشرط ألا يبغى الناس فى الأرض ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض﴾. غنى الظالم وفقر المظلوم وقتى. غنى المعتدى ليفجر، وفقر المعتدى عليه يشحذ الهمة ويقوى العزيمة لاسترداد الحقوق.

الله هو المثل الأعلى فى السماوات والأرض ﴿وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض﴾ وهو القيمة الأولى والمعيار الأول للسلوك البشرى. هو المبدأ العام الذى

يتساوى أمامه الجميع بلا تفرقة فى اللون أو القبيلة أو العشيرة أو الطبقة الاجتماعية. له الكبرياء والعلو والعزة فى السماء والأرض **﴿وله الكبرياء فى السماوات والأرض﴾**. ومن يتكبر فى الأرض فإنه يؤله نفسه، وينصّب نفسه إلها فى الأرض.

ولله يسبح من فى السماوات والأرض **﴿سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾**. فهو الحافظ لحرية البشر والمساواة بينهم. هو أساس العدل والسلام. له الحمد والشكر فى السماوات والأرض **﴿فلله الحمد، رب السماوات والأرض رب العالمين﴾**. فالله ليس إله إسرائيل، إله الجيوش والعدوان، والتابوت والعهد كما يصور العهد القديم. هو إله الجميع. تنعكس وحدانيته فى وحدة البشر جميعا وليس فى شعب مختار. له النصر والأرض والمدينة والمعبد مهما عصى واعتدى وظلم وطرد وشرّد وجرف الأراضى وهدم المنازل ونزع أشجار الزيتون.

٤- اتساع الأرض

وكما أن الله إله السماوات والأرض، وله ملك السماوات والأرض، وله ميراث السماوات والأرض فإنه خلقها على الاتساع حتى تستوعب نشاط الإنسان وحركته. مد الأرض وأقام عليها الجبال لتثبيتها، وأنبت فيها من كل شيء بقدر موزون طبقا لحاجات الإنسان **﴿والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسى، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾**. فالجبل والنهر، الارتفاع والعمق مظهران للأرض وللعمران، للسكن والرى **﴿هو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا﴾**، للحماية بالجبال وللزراعة بمياه الأنهار **﴿والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسى، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾**. وقد أقسم الله بامتداد الأرض **﴿وإذا الأرض مدت﴾**. ودعا إلى النظر فى الأرض كيف سطحت **﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾**. وأقسم بالأرض التى طحاها **﴿والأرض وما طحاها﴾**. الأرض رحبة فوق الأفق دون الاختناق فى أماكن مغلقة يتقاتل عليها الناس. الأرض ليست نقطة بل سطحا وليست مكانا بل فضاء، وليست سكونا بل حركة. والغاية الانتشار فيها والكد عليها. اتساع الأرض مثل مساواة البشر لحمل الأمانة ونشر الرسالة. لذلك انتشر الإسلام فى سهول آسيا الواسعة كسرعة البرق.

وكما مد الله الأرض مهدها وجعلها صالحة للسير والمشى والسعى. وجعل فيها شعابا ومسالك وطرقا **﴿الذى جعل لكم الأرض مهدا، وسلك لهم فيها سبلا﴾**. وضع الله الأرض للأنام أى لسُكنى البشر **﴿والأرض وضعها للأنام﴾**. وذللها لهم للسير فى مناكبها **﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها﴾**. خلق الله السماء ثم

الأرض. فلا سماء بلا أرض، ولا رأس بلا قدمين ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾. مدها كالبساط حتى يسير عليها الناس ﴿**والله جعل لكم الأرض بساطا**﴾. وفرشها بالخضرة والعشب كالبساط الأخضر ﴿**الذى جعل لكم الأرض فراشا**﴾. فيستريح الناس فى المشى بدلا من السير على الحصى والرمال ﴿**والأرض فرشناها فنعم الماهدون**﴾. ووضع فيها ما يكفى لحاجة الناس ومتطلبات معيشتهم ﴿**ألم نجعل الأرض كفاتا**﴾. لا يتعثر أحد فى مشيه عليها. لا يقع فى حفر أو بالوعات. ولا يصطدم بحجارة أو مطبات صناعية. ولا يغوص فى مياه الصرف الطافحة. "والله لو عثرت بغلة فى العراق لسئلت عنها يا عمر لماذا لم تمهد لها الطريق؟".

بل إن الجنة فى نفس اتساع الأرض فى الدنيا ﴿**وجنة عرضها السماوات والأرض**﴾. الاتساع فى الدنيا، والبراح فى الآخرة. فالآخرة استمرار للدنيا فى اتساع الأرض دون الضيق والحشر كما هو الحال فى توزيع الخريطة السكانية فى مصر، ثمانون مليونا يقطنون فى ٤٪ من مساحتها فى وادى النيل وليس فى الصحراء. الاكتظاظ السكانى فى مكان، وترك باقى الأماكن خاوية خالية تضييقا لمساحة الأرض. فى مقابل عدو يزرع المستوطنات فى قلب الصحراء لتوسيع رقعة الاستيطان والانتشار فى الأرض. ويبقى الأرض على الاتساع "من الفرات إلى النيل"، ومن لبنان إلى اليمن. والبدو الرحل لا يعرفون الاستقرار فى الأرض إلا إذا كانت واحة للاستقرار. يسيرون فى الصحراء بحثا عن الماء والكلأ. لا يعرفون الحدود الجغرافية. فالصحراء على الاتساع مثل الأرض. لا يعرفون إلا الله فى السماء والعدل فى الأرض.

فإذا ما ضاقت الأرض بما رحبت فأرض الله واسعة، والهجرة واجبة ﴿**ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾. فلا يجوز الفرار من الأرض. إذا ضاقت فى مكان فإنها تتسع فى مكان آخر ﴿**وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم**

مدبرين». لذلك كانت الهجرة سنة الأنبياء، إبراهيم من العراق إلى الحجاز، وموسى ويوسف من فلسطين إلى مصر، ومحمد من مكة إلى المدينة، هجرات طويلة من مصر إلى فلسطين، من قطر إلى قطر أو قصيرة من مدينة إلى مدينة. تضيق الأرض فى مكان، وتتسع فى مكان آخر «**ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرة**» بشرط أن تكون هجرة مؤقتة. فلا هجرة بعد الفتح. السياحة فى أرض الله الواسعة أمر إلهى وضرورة بشرية «**فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر**». وإن ضاقت عبادة الله فى مكان فأرض الله واسعة «**يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون**». فإذا كان الجسم له حدود فإن الروح بلا حدود.

الأرض كلها ميدان للجهاد فى سبيل الله «**وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا. وما تدرى نفس بأى أرض تموت**». يموت المجاهد فى الأرض على الاتساع، ويدفن فى الأرض على الاتساع، دون مقابر ومشاهد ومنازل عليها للسكنى وللاستقرار، لا فرق بين مقابر الأموات وسكن الأحياء. لذلك سوت الحركة الوهابية المقابر بالأرض. وحرم اتخاذ مقابر الأنبياء والأولياء والصالحين مزارات.

ومع ذلك، ليست الأرض إلها، ولا يمكن تأليهها عبادة أو وعدا «**أم اتخذوا آلهة من الأرض، هم ينشرون**». الأرض من خلق الله، والسير فيها طاعة له. والانتشار عليها تسبيح وحمد وشكر. ومن ثم تبطل دعوى الصهيونية بألوهية الأرض، قطعة من الأرض، وقدسية الأرض، بقعة من الأرض.

ووجود الإنسان فى الأرض مؤقت. إليها يأتى، ومنها يخرج وإلى الله يعود «**وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون**». وهو امتحان وبلاء واختبار بعد سعى وكد واجتهاد. الأرض ميدان للعمل والكفاح. تبقى الأرض ويغادرها الكادحون. وقد يكون هذا الوجود المؤقت فى الأرض عن وعى أو عن لاوعى مثل أهل الكهف «**قال**

كم لبثتم فى الأرض عدد سنين﴾ وحال النائم. وفى حالة الوعى واليقظة يدرك الإنسان أن وجوده زمانى، بين الحياة والموت فى لحظات العمر. يخرج منها الناس يوم الفزع الأكبر ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض﴾. يُبعثون منها كما يولدون فيها ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماء غير السماء﴾. وهو أيضا يوم النفخ فى الصور ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض﴾. وهو الانتباه عن طريق السمع والصوت. الأرض تصدع. وقد أقسم الله بها ﴿والأرض ذات الصدع﴾. ولا يأتى العصيان إلا من العصاة أى من المستوطنين فى الأرض والمعتدين على أصحابها. التقسيمات فى الأرض ضد اتساعها. والجدار العنصرى العازل ضد مدها. والمستوطنات المسلحة المغلقة بالأسوار ضد الانتشار فيها. ولن يمنع الخوف ولا السكنى فى الحصون من انتشار الأرض وفتحها ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾. ولن تمنع البروج من موت المعتدين، ﴿أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾.

٥- خلافة الإنسان فى الأرض

خلق الله الأرض. وهو مالكها ووارثها. وسطحها ليمشى عليها الإنسان ويكد فيها. فالإنسان خليفة الله فى الأرض، مسئول عن تعميرها دون أن يؤدى ذلك إلى حكم سياسى إلهى "ثيوقراطى" باسم الحاكمية. خلافة الإنسان فى الأرض خلافة عامة أى مسئولية وأمانة حملها الإنسان طواعية واختيارا بعد أن عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، عدلا إن وفّى، وظلما إن تخلى.

الإنسان خليفة الله فى الأرض **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**. ليس الإنسان بمفرده بل بجماعته وأمته. فالخلافة فردية وجماعية **﴿وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض﴾**. وهو استخلاف مشروط بإقامة العدل. فالظلم لا يبقى فى الأرض **﴿قل عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض﴾**. فالاختيار ليس لإنسان بشخصه بل لأفعاله أو لشعب بعينه بل لتحقيقه كلمة الله كنظام مثالى للعالم، ومنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمساواة بين البشر. وهو ما يسمى أيضا بالتمكين، اللفظ الذى أصبح مشهورا فى علم الاجتماع بمعنى تمكين المرأة أى زيادة سلطتها ورفع المعوقات عنها **﴿ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش﴾**. وقد مكن الله للأنبياء. فالنبى هو النموذج الأولى للإنسان **﴿وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾**.

وتعنى الخلافة أيضا تعمير الأرض وليس تدميرها، زرعها وليس جرفها، ريها وليس حجب الماء عنها. فالإنسان نشأ فى الأرض وفيها يقيم، وعليها يموت ﴿**هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾. ولا يعنى الاستعمار هنا احتلال أراضى الغير والعدوان عليها وطرد شعبها منها. فالإعمار ليس ظلما لأحد وليس عدوانا من أحد كما فعل المستعمرون والمستوطنون فى الوطن العربى والعالم الإسلامى.

والإنسان أمين على خزائن الأرض مسئول عن زراعتها وتعميرها وإطعام الناس وعدم تجويعهم أو حصارهم أو منع المياه والطاقة عنهم ﴿**قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم**﴾.

وكل شىء فى الأرض مسخر لصالح خلافة الإنسان فى الأرض ﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ لهبوط المطر طبقا لحركة الريح. فالطبيعة طيّعة للإنسان، وقوانينها خاضعة لإرادته مثل إقامة السدود والخزانات وطواحين الهواء وتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية ومساقط المياه وحركة الأمواج.

وهو خليفة قوى فى الأرض، والخلفاء فيها ليسوا ضعفاء أو مستضعفين. والمؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف. فالضعف وهم، وتضييع للخلافة، وتخل عن الأمانة ﴿**قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض**﴾. ويثبت التاريخ أن المستضعفين فى الأرض الذين على حق يتحول ضعفهم قوة. فقد خلقت الأرض للمستضعفين، ووراثتها للمستضعفين ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض**﴾. وقد نشأت كل أمة مستضعفة كما حدث للإسلام فى أول عهده وللنصارى فى بداية النصرانية ثم تحولوا إلى قوة ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض**﴾.

والاستضعاف وقتى فى زمان ومكان معينين. والأرض واسعة. إن استضعف قوم فى بقعة تكون الهجرة إلى أرض فسيحة رحبة واجبة كما حدث فى هجرة

الرسول، وهجرة موسى، وهجرة إبراهيم، ﴿**ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا**﴾. فكل عسر بعده يسر كما أن كل يسر بعده عسر. وتلك هى هشاشة البشر. لا تضيق الأرض على أحد. فرحمة الله واسعة ﴿**ضاقت عليهم الأرض بما رحبت**﴾.

والضرب فى الأرض أى الجهاد فيها والكد عليها ضرورى. والموت شهادة ﴿**وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أوكانوا غزى لوكانوا عندنا ما ماتوا**﴾. ومن لا يجد من يجاهد به يجاهد بالعلم أو بخدمة المحاربين ومداواتهم فى الصفوف الخلفية ﴿**ولا يستطيعون ضربا فى الأرض. يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾. والجهاد فى سبيل الله يبيح التقصير فى الصلاة تطبيقا لواقعية الشريعة وقواعد الضرورة ﴿**وإذا ضربتم فى الأرض فليس جناح أن تقصروا**﴾.

وبالرغم من خلافة الإنسان فى الأرض إلا أن ذلك لا يستدعى منه الكبر والخيلاء ﴿**سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض**﴾. فالله وحده هو الذى له الكبرياء فى الأرض. فالإنسان بالرغم من عظمته لوعيه بنفسه وبالناس وبالعالم إلا أن الأرض والجبال أقوى منه ﴿**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا**﴾. وقد علا فرعون فى الأرض. تكبر، وتجبر، وتأله. والمسرف فى تعظيم قدرته ﴿**وإن فرعون لعال فى الأرض، وإنه لمن المسرفين**﴾. الكبرياء فى الأرض أى الاعتزاز بالنفس للأنبياء وللمؤمنين ﴿**وتكون لكما الكبرياء فى الأرض**﴾.

ومن يتولى عن الخلافة أو يعمل على نقيضها فإنه يفقد دوره فى الأرض. وبدلا من أن يسير عليها، ويجاهد ويكبر فإنه يتوه فيها كما حدث لبنى إسرائيل ﴿**قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة، يتيهون فى الأرض**﴾. ومن يثّاقل إلى الأرض، ويجاهد مرغما غير مؤمن به يكون نوعا من النفاق ﴿**ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض**﴾. ومن يخلد إلى الأرض دون أن يسعى فيها لا ينال أى

رفعة أو عزة عليها، ﴿لو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾. ولا يستطيع الإنسان فى الأرض أن يعجز الله ويعمل ضد إرادته فهناك حدود لقدرة الإنسان تثبت عجزه إذا ما تجاوز الحد ﴿أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض﴾. ومن يعجز الله فإنه يبوء بالخيبة ﴿ما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير﴾. ومهما شق نفقا فى الأرض أو شيد سلما إلى السماء فإنه لن يستطيع إعجاز الله ﴿فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية﴾. فقد وقع فى الغواية واستهوته الدنيا ﴿كالذين استهوتهم الشياطين فى الأرض حيران﴾. فغواية الشيطان الإنسان ثأر من خلافته فى الأرض ﴿قال ربى بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم إنا جعلنا ما على الأرض زينة لهم﴾.

والجهاد فى الأرض فعل حر طبيعى تلقائى إلا أنه أحيانا يتطلب المقاومة فى حالة العدوان. فالصراع جزء من حياة البشر، ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾. ومع ذلك حرية الإيمان مكفولة للجميع. فلا إكراه فى الدين ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا﴾.

وبالرغم من خلافة الإنسان فى الأرض إلا أن الأرض وما فيها عرض زائل لا يبقى. ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها﴾. ما يبقى هو فعل الإنسان فيها ويخلد به عليها ﴿فالدين بها ما دامت السماوات والأرض﴾. وذلك ما يثبته التاريخ. تم تمكين الناس من الأرض ثم ضاعت منهم لأنهم لم يتبعوا قانون العدل ﴿أولم يروا كم أهلكنا من قبلنا من قرن مكناهم فى الأرض﴾. وفى ذلك فلينافس المتنافسون، فى العمل الصالح والسبق نحوه عن جميع الأمم ﴿وقطعناهم فى الأرض أمما، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾. لذلك كان التأمل فى التاريخ والعبرة بالآثار وسيلة للاعتبار، والتمييز بين ما هو جوهرى، العمل الصالح، وما هو عرضى، زينة الدنيا ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيرا فى الأرض﴾. فالتاريخ هو خير

شاهد، والتجربة أفضل تصديق ﴿**قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾.

ولن يستطيع الخليفة فى الأرض إن تخلى عن مسئولياته أن يعوض خسارته حتى ولو أتى بملء ما فى الأرض ذهبا ليفتدى نفسه. فقد انتهى وقت العمل فى الحياة وجاء يوم الحساب ﴿**فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى**﴾. ولا يستطيع أن يكفّر عن نفسه أو يفتديها بكل ما فى الأرض ﴿**إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم**﴾. فساعة الحساب لا تنفع فيها الفدية ﴿**ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به**﴾. انتهت الدنيا، وقت العمل والكفاح، وجاءت الآخرة لإعلان النتيجة. حينئذ لا ينفع الندم أو الفداء ﴿**والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا**﴾.

٦- الاستقرار فى الأرض

ليست الأرض فقط ملكا لله وهو وارثها ولكنها أيضا مستودع ومقر للإنسان. يستقر عليها ويتشبث بها، ويقاوم إخراجه منها. ينتشر عليها، ويعمل فيها ويأكل منها، وينفق على غيره من رزقه. وعليها يؤسس المدينة ويقيم العمران.

الأرض للسكن وليست للهجرة. وللتمسك بها إعلاء لكلمة الله **﴿فلن أبرح الأرض﴾**. السكن فى الأرض أمر إلهى للمتقين وليس للعصاة **﴿وليسكننكم الأرض من بعدهم﴾**. فشرط السكن فى الأرض التقوى والطاعة وليس الجحود والعصيان **﴿اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾**. السكن فى الأرض نتيجة وليس مقدمة، استحقاق وليس حقا **﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامى﴾**. هو نتيجة لجهد الإنسان وكسبه وليس حقا مكتسبا من وعد إلهى لشعب خاص كما هو الحال فى الصهيونية.

والإخراج من الأرض غاية العصاة **﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾**. وقد هلك فرعون لأنه أراد إخراج جزء من شعبه من الأرض **﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا﴾**. الإخراج من الأرض جريمة يثور ضدها الضحايا **﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾**. وهى تهمة العصاه للأنبياء **﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم﴾** كما اتهم فرعون موسى. والحقيقة أن الوحى تحرر للبشر من ربقة الطغاة. ليس الوحى سحرا يخرج الناس من أرضهم بل هو حق يجهر بنفسه لتحرير الأرض كلها

من نظم البغى والطغيان ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾. وعلى الإنسان الاختيار إما التحرر من الطغاة والهجرة المؤقتة حتى العودة والفتح أو الاستسلام لهم ﴿لنخرجنكم من أرضنا أولتعودون فى ملتنا﴾. وإتباع الهدى واختيار التحرر قد يؤدى إلى الطرد من الأرض والإبعاد منها والنفى والتشريد فيصبح أهل البلاد شعبا من اللاجئين ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾. كل شعب يعيش حيث استقر. لا يترك أرضه إلى أرض غيره بدعوى الأحقية. عاش اليهود فى مصر منذ هجرة يوسف والذى أصبح وزيرا على خزائن الأرض، حفيظا عليما. ولاؤه لمصر اعترافا بالنعمة وإكرام المثوى من والديه الذين تبنياه. والخروج منها إلى فلسطين وإخراج الكنعانيين عدوان لا يقره الأنبياء، ولا كان هدف موسى. هو ما فعل يوشع من بعده، استيلاء على أرض الغير والاستقرار من بدو رُحّل فى أرض خضراء لإيجاد أرض لليهود بعد التيه يستقرون عليها حربا وليس سلما، عدوانا وليس جوارا، طردا وليس كرما، عنصرية وليس أخوة، استيطانا وليس مشاركة، إرهابا وليس إكراما للضيف.

ولا يوجد إسكان دائم لشعب معين فى أرض بلا شروط، وعلى نحو مجانى، وبلا مقابل من تقوى وطاعة وعمل صالح ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم﴾ باعتبارهم جماعة من المؤمنين يعيشون مع غيرهم فى أمن وسلام. فلسطين أرض مقدسة لأنها مهبط الأنبياء. وهى مقدسة فى ذاتها لأنها وسط العالم وليست عند شعب بعينه. القتل والعدوان فيها ضد التقديس. الحياة عليها مقدسة مثلها. وقد تزوج موسى من إحدى ابنتى شيخ مدين وعمل مع قوم مدين مزارعا. وهو القوى الأمين. ثم انقلب اليهود على مدين وقتلوا أبناءهم وسبوا نساءهم غدرا بالليل.

وبعد الاستقرار يأتى الانتشار فى الأرض والرحلة فيها والسعى عليها **﴿فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾**. فالأرض مكان للاستقرار والحركة، للزراعة والفتح، للسكن والهجرة، للغرس والانتشار. الإنسان حامل أمانة، ومبلغ رسالة. ينشر التوحيد فى كل مكان. وتتحرر به الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها. فالأرض لله والحكم لله. والتوحيد لا يعرف حدودا ولا قسمة. الأرض واحدة مثل أن الله واحد، والإنسانية واحدة، والحقيقة واحدة.

والاستقرار فى الأرض للعمل. فإذا ما انتهى وقت العمل انتهى السكن فى الأرض وجاء قوم آخرون. السكن فى الأرض امتحان واختبار لآدم وبنيه بعد أن كان فى السماء. وبإرادته الحرة وعمله هبط إلى الأرض **﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾**. الإنسان مار عليها والأرض باقية. خلوده فى آثاره التى يتركها فى الأرض. فالأرض جغرافيا وتاريخ. والعمل الصالح يتراكم فى الأرض جيلا وراء جيل، مسئولية فردية وجماعية. وإلى الله يرجع كل شىء.

والأرض قابلة للفعل الإنسانى طيعة له، مطيعة لإرادته، مادة خام يشكلها الإنسان **﴿أمن جعل الأرض قرارا﴾**. وفيها الأنهار لزراعة الأرض والانتقال والشرب **﴿وجعل خلالها أنهارا﴾**. يشق الإنسان الجبال، وينحت فيها بيوتا، ويسير بالفلك عبر البحار، ويرغب فى الطير فى السماء. وهنا تنشأ المدنية أى قدرة الإنسان على التعامل مع الطبيعة لتسخيرها لصالحه. الإنسان من الأنس وليس من النسيان. والأنس اقتران بالآخر، والعيش مع الجماعة. لا يعيش الإنسان منعزلا فى ركن من الأرض بل فى جماعة فى أفق الأرض الفسيح بلا حدود.

والأرض مصدر الرزق والكسب مما يهبط عليها من الأمطار فتخضر، ومما يُستخرج من معادن. فالرزق من السماء ومن الأرض بفعل الطبيعة المسخرة لصالح

الإنسان ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾. فلا يوجد كسب سريع عن طريق العمولات والوساطات بل بالإنتاج. العمل وحده مصدر القيمة. والأرض مصدر للطعام الحلال والكسب المشروع ﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا﴾، وليست للنهب والهدر والتبذير كما يفعل السفهاء. الأرض مثل الجنة فى السماء، جنات من أعناب وزرع، يأكل منها الناس وليست أرضا قاحلة يموت فيها الزرع والضرع كما يشاهد الآن فى السودان وتشاد والصومال وأثيوبيا وبنجلاديش ﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع﴾. نبت الإنسان فى الأرض مثل النبات. فالإنسان زرع الأرض، والنبات زرع الإنسان ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾. لذلك صاغ إقبال فلسفة النماء والنشوء والارتقاء باعتبارها روح الإسلام.

وهذا الرزق للإنفاق، وليس للاحتكار أو الاستغلال ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾. لا يُمنع من رزقها إنسان ولا حيوان ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله﴾. وقد عذبت امرأة فى هرة فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض. ففى الأرض رزق للجميع. لكل ذى كبد رطب إنسانا أو حيوانا ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾. فلا تتراكم الثروات عند قوم ولا تموت الملايين جوعا وقحطا، مسلمين أو غير مسلمين.

وعلى الأرض تقوم المدنية ويتأسس العمران. إن تأسست على القوة والثروة وحدهما يكون عمرها قصيرا، ﴿كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض وعمروها﴾. وإن تأسست المدنية والعمران على التقوى والطاعة يطول عمرها ﴿ويوأكم فى الأرض تتخذوا من سهولها قصورا وتنحتون بيوتا﴾. فالفضيلة قانون التاريخ وليس القوة أو الثروة.

لا تقوم الحضارة على التخريب والتدمير وتجريف الأراضى واقتلاع أشجار الزيتون وهدم المبانى وشفط المياه من الآبار أو تسميمها وطرد أهلها. ومن يفعل ذلك يكون مصيره كعاد وثمود. الحياة على الأرض اختبار للإنسان. خلقها الله له ليستقر فيها ويعيد خلقها وتشكيلها بعقله وإرادته. فالإنسان يشارك فى صنع الحياة فيها ويحولها من حياة عضوية إلى حياة عمرانية. الله خالق الأرض والحياة والإنسان صانع الحضارة والتاريخ.

٧- الأرض الخضراء

إن تصوير القرآن للأرض الخضراء التى ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج هو إيحاء للعرب بالتوجه نحو الأرض لزراعتها وريها. فصورة الأرض الخضراء فى الذهن الإلهى هى صورتها أيضا فى الذهن الإنسانى. فالقرآن موجه للسلوك الإنسانى وواقع على العمل فى الأرض وبناء العمران. القرآن به كل شىء **﴿وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين﴾**، **﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾**. ليس بمعنى الحلول ولكن بمعنى به كل التوجه والإرشاد والرؤية والمنظور. ومازلنا نستمد رؤانا للعالم من القدماء الذين عاشوا فى عصر مضى وفى مرحلة تاريخية ولّت، ونحن نعيش فى عصر آخر وفى مرحلة تاريخية جديدة، من الانتصار إلى الانكسار، ومن الوفرة إلى الندرة، أو ننقلها من المحدثين فلا تنجح خططنا التنموية إذ تنقصها المشاركة الشعبية والدافع الداخلى من الثقافة الوطنية.

لذلك يقوم اليسار الإسلامى على تجربة أخرى، التوجه نحو الأرض ليس فقط للتحرير والعمران بل أيضا للزراعة حتى نأكل ما ننتجه، ونحصد ما نزرعه لتحرير الإرادة الوطنية من المعونات الخارجية والتهديد بقطعها ومنع توريد القمح والغذاء. فالهند شبه القارة التى يقطنها فوق المليار نسمة تأكل ما تنتج، ولا تستورد قمحا. ونحن ما يقرب من المليار والنصف من المسلمين يعم أراضينا القحط والجفاف من جانب، والغرق والفيضان فى جانب آخر. فما هى صورة الأرض فى القرآن؟

الأرض للإنبات وليست الأرض القاحلة الجافة. يهرع إليها الناس **﴿فادع لنا**

ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾. الأرض تنبت بفعل إنزال الماء عليها كما يفعل المطر درسا للإنسان لحفر الآبار وإقامة السدود والبحث عن مصادر المياه ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾. يختلط الماء بنبات الأرض فيتحول إلى عشب وأشجار ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾. فندرة المياه أسطورة تبرر اندلاع الحرب القادمة فى فلسطين حول المياه التى سلبها المستوطنون لرى حدائقهم، وفى نفس الوقت تسميم آبار الفلسطينيين حتى يموتون جوعا وعطشا فيهجرون الأرض طوعا أو كراهية.

يهبط الماء من السماء مطرا ويتفجر من الأرض عيونا ﴿وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾. وتفجير الينابيع من الأرض دليل على النبوة كما فعل موسى عندما ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه العيون ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾. ليست الصحراء العربية قاحلة. بها عيون وآبار للمياه وعيون أخرى وآبار للنفط، الماء للزراعة، والنفط للصناعة. إن الصحراء التى خرج منها الأنبياء يعبرون عن آفاقها اللانهائية باسم التوحيد لا يمكن أن تكون فقيرة والله غنى.

وقد نشأت العيون من مياه الأمطار المتراكمة فوق الأرض فتنفذ فى مسامها وتختزن تحت ثراها حين الحاجة ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض﴾. يسلك الماء فى ينابيع الأرض لحين الحاجة ﴿أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض﴾. العطش فى السودان ومالى والصومال والحبشة والمياه بالجوار يتحول إلى فيضانات فى الهند وبنجلادش سوء تخطيط من البشر وعجز من المسلمين على التعامل مع الطبيعة وتسخير قوانينها لصالح العمران.

الأرض هى الأرض الحية وليست الميتة. يعيش عليها الأحياء ولا يدفن فقط

فيها الأموات ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا﴾. لذلك يشار إلى أراضى المسلمين فى أفريقيا وآسيا بأنها أراضى الجوع والعطش، وبلاد القحط والجفاف. وهى مملوءة بالمياه والزرع. وكانت هدف المستعمر الغربى باستمرار. مياه وزرع فوق الأرض، ومعادن وثروات تحت الأرض. بل لقد امتد العطش إلى دلتا النيل لعدم العناية بالشعب بينما تتوفر المياه فى القرى السياحية فى الساحل الشمالى وعلى سواحل البحر الأحمر للأغنياء والميسورين. والطريق قادم إلى خصخصة المياه وبيعها للقادرين لأن الماء أصبح سلعة وليس خدمة، تجارة وليس حقا، من الكماليات وليس من الضروريات. وقد حث الشرع على أن تكون المياه عامة للناس ولابن السبيل. والحديث مشهور "الناس شركاء فى ثلاث: الماء والكلأ والنار". وكان "السبيل" من جوانب العمارة الإسلامية حتى حنفيات البلدية العامة فى الأحياء التى لم تدخلها المياه بعد إلى عهد قريب.

الماء له فعل فى الصخر، وقوته فى الأرض القاحلة. فالحياة أقوى من الجماد. والنماء أقوى من الموت ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا﴾. مصادره مياه الأمطار والعيون والآبار. ومهمة الإنسان تخزين مياه الأمطار للانتفاع بها على مدى العام، وتفجير العيون وحفر الآبار للاستفادة من المياه المختزنة فى باطن الأرض. الجنة بها أنهار وليست صحراء قاحلة. وفجر الله مياه زمزم حتى لا يهلك أولاد إبراهيم من العطش، وأصبحت مزارا وحجا للمسلمين. وهى المياه المباركة النظيفة وليست المياه الآسنة من البرك الراكدة التى تحمل الأمراض للشاربين منها، اختيارا بين الحياة مرضا والهلاك عطشا. ولا حاجة لجر جبال الجليد من الشمال إلى الجنوب حيث يضيع نصفها من الذوبان فى مياه البحار أو تحلية مياه البحار والمياه الطبيعية موفورة فوق الأرض وتحتها. وهى ليست صالحة للشرب ولا للزراعة.

ينزل الماء على الأرض فتخضر ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة**﴾ وليست هشيما أصفرا تذروه الرياح. ويستعمل القرآن جماليات الألوان، الأصفر رمزا للقحط والعطش والجفاف من أجل الحث على الزراعة، والأحمر رمزا للنار والحديد من أجل الدفع نحو الصناعة، والأسود رمزا للعتمة واليأس والذنب، والأبيض رمزا للصفا والنقاء والأمل.

الخضرة حياة الأرض. والماء يحول الجماد إلى حياة، والأرض إلى نبات ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾. وقد كانت أعلام معظم الدول العربية الإسلامية خضراء رمزا لاخضرار الأرض. ثم أصبح اللون الأخضر رمزا للسلام فى المسيرة الخضراء أو الاستقلال الأيديولوجى كما هو الحال فى "الكتاب الأخضر". بل أصبح رمزا إلى الطرق الصوفية، العمامة الخضراء، والبيارق الخضراء، والأردية الخضراء رمزا للنماء وثراء الروح وإن كانوا من الزهاد والفقراء.

الأرض ثابتة هامدة ساكنة. فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت، تحركت وحيت ﴿**وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾. فالحياة نماء وحركة، طاقة وتطور حتى لا يُتهم المسلمون بالثبات والجمود والخمول والتخلف عن مسار التطور. وإذا كان الاجتهاد هو مبدأ الحركة فى الإسلام والارتقاء فى المقامات والأحوال لدى الصوفية دليلين على التطور والنماء فى الفكر فإن حركة الأرض عن طريق الماء والخضرة هو القرين للفكر.

٨- إصلاح الأرض

والأرض موطن للإصلاح وليس للإفساد، للتعمير وليس للخراب. ولما كان الإفساد هو الشائع فقط استعمل لفظ الإفساد فى الأرض أكثر من لفظ الإصلاح لأن الإفساد هو الأخطر. وهو القاضى على العمران. واستعمل الإصلاح أكثر فى إصلاح ذات البين، والإصلاح بين الزوجين، والإصلاح بين الناس.

والفساد الاجتماعى والسياسى والاقتصادى هو جزء من الفساد فى الأرض. فلا يعنى الفساد فى الأرض فقط ما تفعله إسرائيل بتدمير مظاهر الحياة على الأرض الفلسطينية وكما فعلت أمريكا فى فيتنام، قتل كل شىء يتحرك. وعادة ما يكون الفساد من المستعمر والمحتل والمعتدى، ولكنه أيضا الإفساد الداخلى من الحكام من أهل البلاد مثل تزوير الانتخابات، واعتقال المعارضين، وحبس رؤساء تحرير الصحف، وتهريب الأموال، واحتكار تجارة الحديد والأسمنت، وتراكم رؤوس الأموال فى أيدى القلة، والرشاوى والعمولات، والتهرب الضريبى. بل أصبحت ظاهرة الفساد من أهم ظواهر مرحلة ما بعد الاستعمار وقيام الدول الوطنية.

الإفساد فى الأرض إتباع للأهواء، وبالتالى الإصلاح فيها هو الحق، **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾**. بل ويمتد الفساد من الأرض إلى السماء. إذا فسدت السماء أى أسس الفعل فسدت الأرض أى نتائج الفعل. الإفساد تغليب للمصلحة الشخصية على المصلحة العامة، وإيثار الأنانية على الغيرة، والمحسوبية على الحق.

ومن مظاهر الفساد فى الأرض قتل الأبرياء وإزهاق الأرواح، ﴿**من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا**﴾. وهو ما يحدث فى السجون والمعتقلات فى الداخل كما تفعل كثير من نظم الحكم، والعدوان من الخارج كما تفعل إسرائيل فى فلسطين. يعادل الإفساد فى الأرض قتل النفس وهو جزاء الإفساد، ﴿**ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾. ليس منع الفساد بالضرورة عن طريق القصاص بل الإبعاد عن الأرض موطن الفساد.

الإفساد فى الأرض إبخاس الناس أشياءهم والنيل من حقوقهم، ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا فى الأرض**﴾. وعدم المساواة فى الحقوق والواجبات، وتقديم المفضول على الأفضل عن طريق الوساطة والرشوة.

ومن مظاهر عصيان الأنبياء اتهامهم بالإفساد فى الأرض، ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك آلهتك**﴾. فالإفساد والإصلاح رؤى وأحكام قبل أن يكونا أفعالا وأعمالا. ومع ذلك الإفساد والإصلاح لهما مقاييس موضوعية مثل إحياء النفس أو قتلها، إعمار الأرض أو تخريبها. فلا تتحول الرؤى الذاتية إلى تضحية بالمعايير الموضوعية.

الأنبياء والأخيار يفسدون فى الأرض، ﴿**قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين**﴾. فالنبى مصلح، والنبوة إصلاح، والوحى تغيير نحو الأفضل ورقى اجتماعى. فقد ساهم الوحى فى استقلال الوعى الإنسانى وحريته وفى تحقيق مبادئ العدالة والمساواة فى المجتمع.

والإفساد فى الأرض من شيم بنى إسرائيل، ﴿**وقضينا على بنى إسرائيل لتفسدن فى الأرض**﴾، وهو ما تفعله إسرائيل حاليا فى فلسطين بتجريف الأراضى

الزراعية، وتدمير أشجار الزيتون، وهدم المنازل، وقتل الأبرياء، الأطفال والنساء والشيوخ، واغتيال المقاومة، وزرع المستوطنات، وإقامة الجدار العنصرى العازل. وهو نتيجة للعنصرية الإسرائيلية، الحياة لهم والموت لغيرهم، البناء لهم والعدم لهم، الإعمار لهم والخراب لغيرهم. كذلك القوى الكبرى مفسدة فى الأرض بالحروب وأسلحة الدمار الشامل **﴿يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض﴾**. فهى تبغى السيطرة على العالم كله بدلا من الله، والعالم لا يحكمه إلا إله واحد. والنخبة الحاكمة والطبقة العليا تفسد فى الأرض **﴿وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض﴾**. وهم الأقلية ضد الأغلبية، والأغنياء ضد الفقراء. لذلك لا يجوز احتكار الثروة والسلطة بين يدى القلة دون توزيعها على الأغلبية.

والانقلابيون على الثورات يفسدون ما أصلحوا، **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض﴾**، كما حدث فى تاريخ مصر من الجمهورية الأولى إلى الجمهورية الثانية. وهو أسوأ من الإفساد المبدئى. فالإفساد بعد الإصلاح جريمة مزدوجة لأنه تم بعد معرفة الإصلاح وإتمامه ثم تدميره وإفساده.

ويستحيل الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها، لأن الإصلاح هو الثابت والفساد هو المتحول. الإصلاح هو الباقى والإفساد هو الطارئ، **﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفا وطمعا﴾**. فالإصلاح طمع فى الإعمار، والإفساد نتيجة عدم الخوف من الله أى من القانون والدولة والمحاسبة وأجهزة الرقابة والعقوبة فى السماء وفى الأرض. ليس الإصلاح كالإفساد، ولا الإفساد كالإصلاح **﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض﴾**. فالتمييز العقلى والمشاهدة العيانية قادران على الحكم.

والإصلاح فى الأرض فعل مقاومة فى جدل الإصلاح والإفساد، ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾. فالإصلاح جهاد. يواجه معارضة الفساد ومقاومة المفسدين.

ومنع الفساد فى الأرض أمر إلهى، ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون**﴾. وذكر نعم الله تمنع من الفساد فى الأرض، ﴿**واذكروا نعم الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين**﴾. وهو أمر بشرى أيضا من المصلحين ﴿**فلولا كان من القرون من قبلكم أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين**﴾.

ومن مظاهر الإفساد فى الأرض قطع الموصول مثل قطع الأرحام وتفكك المجتمع والفرقة فى الجماعة، ﴿**ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض**﴾. الفساد فرقة، والإصلاح قوة.

وكيف يفسد الإنسان فى الأرض والله لا يحب الفساد ولا المفسدين، ﴿**ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين**﴾. ذكر الله إذن هو الطريق إلى الإصلاح. المصلح فى علاقة حسنة مع الله بعكس المفسد. الإصلاح يضع الإنسان فى علاقة مع الله. فى حين أن الإفساد يقطع كل علاقة مع الله. الإصلاح هو الضمير الحى. والإفساد غياب كلى للضمير.

٩- فساد في الأرض

أوصاف بنى إسرائيل فى القرآن الكريم تدل على سلوكهم اليوم. فيهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون. وجوهر الرسالات السماوية الإصلاح، ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ﴾. فالإبادة الجماعية للشعب الفلسطينى بالرد خارج أرضه والقتل والسجن والاستيطان والعدوان الأخير على غزة، كل ذلك فساد فى الأرض. لا يسمعون لحق أو عدل أو يطيعون قانونا أو يراعون عهدا أو ميثاقا ولا يحافظون على معاهدة، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ﴾. ولكنهم تركوا الحق وعبدوا الشيطان واتجهوا إلى الدنيا وحاربوا القبائل واستولوا على أراضيهم وثرواتهم. ولم تنفعهم ذكرى الرسل، ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً﴾. ونجاهم الله من فرعون وجنوده، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾. ويغالون فى التمسك بأشكالها. ومع ذلك يأكلون الربا، ويبدلون كلام الله طبقا لرغبات الملوك. ويستكبرون فى الأرض لأنهم أبناء الله وأحباؤه كما يدعون. العالم معهم، أوروبا وأمريكا خاصة إحساسا بالذنب تجاههم لما اقترفوه فى حقهم من جرائم واضطهاد لعنصريتهم ورفضهم الاندماج فى القوميات التى يعيشون فيها فى ألمانيا أو فرنسا أو روسيا أو ألمانيا الشرقية، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾. وكفروا بكل آية أو بينة ولم يسمعوا لأى دليل حتى علماؤهم، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وتكررت الآيات ولكنهم لا يؤمنون، ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾. وتوالت الرسل، ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. عصوا الأنبياء بالرغم مما آتوهم من بينات، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾. آمنت الأقلية، وكفرت الأغلبية، ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾. جحدوا النعم. فقد عاشوا بين العرب والمسلمين فى مصر والعراق والغرب العربى كله. وعاشوا عصرهم الذهبى فى العلم والثقافة والحرية فى الأندلس. ولم يروا الاضطهاد إلا بعد خروج المسلمين منها على أيدى النصارى ومحاكم التفتيش فنزحوا منها إلى المغرب حيث يحكم المسلمون. وآوتهم الدولة العثمانية وحمتهم من الاضطهاد الأوروبى الحديث بعد حادثة درايفوس فى فرنسا واستوطنوا فى أراضيها فى كل مكان، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. لم يتعظوا من إنجاء الله لهم، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾. ونجاهم من العذاب المهين، ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

وحرم الله عليهم القتل وشرع لهم القصاص، السن بالسن، والعين بالعين، والنفس بالنفس، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾. وقد قتلت إسرائيل فى غزة وجرحت الآلاف من النساء والأطفال والشيوخ، وهدمت المنازل على رءوس المدنيين الآمنين. ينافقون فى تطبيق الشريعة ويتشددون فى أحكامها. فقد كان كل الطعام حلا لهم إلا ما حرموه هم على أنفسهم، ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾. لذلك لعنهم الأنبياء. فكتب الأنبياء كلها تبدأ بآية "اللعنة عليكم يا بنى إسرائيل"، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. تاريخهم مع الأنبياء تاريخ العصيان وليس تاريخ الطاعة. لم يهتدوا بالنبوة ولم يؤمنوا بالكتاب، ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً

﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ورث بنو إسرائيل النبوة، نبيا وراء نبى، ولكنهم عصوهم أو قتلوهم، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾. ويكشف القرآن تاريخ عصيان بنى إسرائيل، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. قطع الله معهم الميثاق لأنهم عصوه وبدله بميثاق آخر فردى روحى أخلاقى شامل عرضه على السيد المسيح عليهم، ولكنهم كذبوه أيضا وتآمروا عليه وسلموه للرومان بتهمة أنه لا يعترف بإمبراطوريتهم. والمسيح يتحدث عن ملكوت السماوات وليس ملكوت الأرض، ملكوت الروح وليس ملكوت البدن. ففى الثقافة العربية الإسلامية ما يكفى لحماية الأمة من الاستسلام والتنازل والمساومة على الحقوق. فهم لا يراعون عهدا ولا يحافظون على معاهدة ولا يعترفون إلا بالقوة والمصلحة. خُلق العالم كله لهم. فهم أسياد البشر.